أسطورة هرقل في المغرب القديم بين الخيال والواقع

عبد العزيز بل الفايدة

ارتبطت عدد من الطوبونيميات والمواقع الأثرية بأسماء بعض الآلهة وبأبطال أسطوريين[1].

والمغرب كغيره من مقاطعات العالم الروماني لم يخرج عن هذه القاعدة إذ لم يخل من مواقع ورؤوس جبلية ظلت تحمل أسماء هذه الآلهة أو هؤلاء الأبطال الميتولوجيين.

ويظهر جليا من خلال تتبع مختلف المصادر الأدبية والأثرية تردد أسماء بعض الأبطال أمثال هرقلس و هرمس ومركوريوس وأبولون وانطيوس و أطلس وغيرهم.

إلا أننا سنركز على البطل الأسطوري و الإله هرقلس نظرا لحضوره المتميز ورسوخه في متخيل سكان المغرب القديم.

لقد كتب جول توتان في بداية القرن العشرين ما يلي :" من بين أبطال الميتولوجيا الإغريقية الذين شهدت عبادتهم إقبالا كبيرا داخل الولايات الرومانية نجد الإله هرقلس"[2]

فهل تنطبق هذه المقولة على شمال إفريقيا عامة و على المغرب القديم بصفة خاصة؟

اتفق العديد من الباحثين على مطابقة هرقل للإله ملقارت الصوري، والذي انتشرت عبادته في الغرب بفعل ما عرفته هذه المدينة من تطور و رخاء إقتصادي مهمين ونظرا للدور الذي لعبه المعبد الصوري في إنجاح العمليات التجارية الفينيقية[3]

فهو يعتبر أقدم المعابد حيث يعود بناؤه إلى 2750 ق.م. كما يؤرخ معبده في قادس بالقرن12 ق.م. ورغم أن العديد من الأشخاص حملوا إسم الإله فليس هناك شواهد حقيقية

---

[1]- DEVRIES (J.), Toponymie et histoire des religions, *R.H.R.*, CXLV, 1954, p.207-230.
[2]- TOUTAIN (J.), *Les cultes païens dans l'empire romain*, T.1,1907, p.400.
[3]- LIPINSKI (E.), *Dieux et déesses de l'univers phénicien et punique*, Louvain, 1995, p.234.

تدل على عبادته في قرطاج[4] فأقدم المخلفات الأثرية التي تشهد على عبادته لا يتعدى تاريخها القرنين الرابع و الثالث ق.م.[5]

احتل هرقل مكانة مهمة في البانتيون الإفريقي و اعتبر من قبل ك. بوني C.BONNET "حامي و سيد المؤسسات الصورية في البحر المتوسط"[6] كما أن الأساطير الغنية ذات العلاقة بالإله ملقارت –هرقل تجعل من إفريقيا مجالا وفضاءا لانتشار المغامرات الهرقلية.

إن جذور الإله عميقة في شمال إفريقيا و أسطورته حاضرة بشكل كبير من حدود رأس بون بتونس إلى حدود طنجس -ليكسوس بالمغرب.

وهناك عدد من المدن ارتبطت نشأتها بهذا البطل الأسطوري و الأمثلة متعددة سواء في إفريقيا أو في غيرها من المقاطعات الرومانية الأخرى. فحسب سليوس ايطاليكوس (القرن الأول الميلادي)" فإن مدينة ساغونت جنوب الإيبر (Ebre) والتي كان حصارها سببا في قيام الحرب البونية الثانية- هي مؤسسة هرقلية"[7].

ويقول المؤرخ إتيان البيزنطي الذي استمد معلوماته من Parthenios de Nicée أن نيموزوس Nimes مدينة "غالية" استمدت اسمها من نيموزوس ابن هرقل حسب بارتنيوس"[8] كما أنه اعتبر الجد الأول للعديد من الشعوب ، فحسب بارتينيوس دائما فإن هرقل تزوج من ابنة الملك Bretannos المسماة Celtiné وأنجبا طفلا أعطوه اسم Celtos ومنه استمد الكلتيون Celtes اسمهم.

أما في شمال إفريقيا، فيبدو أن مدينة قفصة أسست من قبل هرقل ليبي حسب رواية المؤرخ سالوست[9] ويعتقد المؤرخ أوروسيوس Orosius .أن لهذا الإله جذورا فينيقية[10].

4- *Ibid.*, p.235.
5- LEGLAY (M.), Héraclès-Hercule en Afrique du nord, *dans Héraclès d'une rive à l'autre de la Medit., Bilan et perspectives, Actes de la table ronde de Rome E.F. Rome*, septembre, 1983, Bruxelles-Rome, 1992, p.293-294.
6- BONNET (C.), Cultes et mythes de l'Heraclès tyrien en Mediterranée, *Studia Phoenica* VIII-NamurLouvain, 1988, p.166.
7 -Silius Italicus, *Punica* I, 273-287
8- Etienne de Byzance, p.289 Meineke = Parthenios, fr.47.
9- SALLUSTE, *Jugurtha*, LXXXIX,4.
10- PAUL OROSE, *Adversus paganos*, V,15,8.

أما المؤرخ سولينوس Solinus[11] فيربط نشأة مدينة إيكوسيوم (الجزائر) بعدد من رفقاء هرقل وهناك أسطورة تربط نشأة مدينة قرطة بالبطل هرقل ذلك أن Iadés ابن هرقل هو ابن سيدة إغريقية تدعى Kerthé و منها كرطةCirta. [12] المدينة النوميدية.

وهناك أسطورة مفادها أن مدينة أوتيكا اسست من قبل الصوريين الذين ينحدرون من ملقارت وهو أمر يعاكس الفرضيات الأخرى التي تجعل من أبولون سيد هذه المدينة انطلاقا من بعض المعطيات منها وجود معبد للإله يعود تأسيسه إلى فترة تأسيس المدينة ووجود نتوء أبولون على بعد 25 كلم شمال شرق المدينة[13].

وهناك من المدن من حافظت على اسم الإله من خلال الاسم الذي حملته بحيث يمكن الاشارة هنا إلى مثال مدينة Calceus Herculis (القنطرة) بنوميديا، وغير بعيد عن هذه المدينة ، على بعد 12 كلم نصادف حامة هرقل (Aquae Herculis) التي يمكن مطابقتها بحمام سيدي الحاج التي اشتهرت بمياهها المعدنية. ويعتقد مرسيل لوغلاي M.Leglay أن ارتباط الحامة باسم هرقل يمكن أن يفسر ربما بقربها من القنطرة وبذيوع أسطورة هرقل المتعلقة بشقه للطرق و المنافذ ذلك أنه كان وراء فتح الطريق- جنوب الأوراس-حيث توجد مدينة القنطرة، هذا المنفذ الضيق مكن من الاتصال بين مدينتي لمبيز و بسكرى و على نطاق واسع بين منطقة التل و الصحراء[14]

وهناك من المدن من اتخذته إلها حاميا لها مثل ليبتس ماغنا حيث صور فوق نقودها[15] . كما عثر بالمدينة على نقائش تضفي عليه لقب جني المستوطنة أو جني المستلحقة génie du municipe[16] لكن أهم نقيشة هي تلك التي تحتوي على نص بونيقي يضفي عليه لقب سيد مدينة ليبتس و تحت اسم ملك عشتار إلى جانب الإلهين شدرافا (Shadrapha)

---

[11]- SOLINUS, XXV, 7.
[12]- CORBIER (P.), Hercule Africain. Divinité *indigène*, D.H.A., I, 1974, p.100.
[13]- LEZINE (A.), Utique, société tunisienne de diffusion, 1970, p.37.
[14]- LEGLAY (M.), Heraclès-Hercule. *op.cit.*, p.295.
[15]- MULLER, *Numismatique de l'Afrique ancienne* II, Copenhague, 1862, p.3 n°1 à 16.
[16]-IRT, 280-284 ; IRT, 266.

ولبير باطير[17] (Liber Pater) ويعتقد لوبولي (LEPELLEY) أن هناك نوعا من المبالغة في إضفاء مثل هذه الصفة على إله كهرقل حيث شخصيته تتجاوز بكثير حدود هذه الجماعة البشرية[18].

ومن المدن الأخرى التي طلبت حمايته نجد مدينة شواش(Sua) جنوب غرب قرطاج حيث عثر على مذبح مقدم لهرقل الحامي للمدينة " جنيوس المدينة[19]. وإلى الجنوب من هذه المدينة تقدم المجلس المحلي لمستوطنة سوفيس(Sufes) بإهداء إلى كاهن امبراطوري بمناسبة ترقيته وقد عبر عن أريحيته يوم 21 أكتوبر الذي يتزامن مع الاحتفال بعيد ميلاد الإله هرقل حامي الأجداد(Genius Patriae)[20] وهذا النعت ربما يعبر عن مظهره المحلي أي الإفريقي.

ويمكن أن نسجل كذلك ارتباط قبيلة النوميديين بهرقل كما تبين ذلك نقيشة نوبورسيكو نوميداروم شرق الجزائر، والتي تضفي عليه لقب جنيوس[21]، ونفس الصفة حملها أيضا فوق نقيشة عثر عليها في هيبون (Hippo) حيث حمل لقب حامي قبيلة السابورانسيين النوميدية (Saburanienses)[22].

إن ما يستشف من هذه المعطيات هو أن المدن ذات التقاليد الفينيقية البونية التي أضفت على الإله لقب جنيوس أو إله الأسلاف استمرت في تخصيص عبادة لهرقل حتى بعد اندماجها في العالم الإغريقي-الروماني.[23]

إذن كيف يمكن أن نفسر حضور اسم هرقل في المواقع الإفريقية ؟

إن هذا الانتشار ربما راجع لتأثير الإله البونيقي ملقارت و بالتالي يختفي سيد صور

17- DIVITA (A.). Shadrapha e Milkashtart dii patrii de Leptis Magna e I templi del lato nord-ouest del Foro vecchio Leptitano, *Orientalia*, n.s.37, 1968, p.201-211.

18-LEPELLEY, Une forme religieuse du patriotisme municipal : le culte du génie de la cité dans l'Afrique romaine, *Actes du 1ère colloque sur l'histoire et l'archéologie de l'Afrique du nord*, Avignon 1990, p.125-136.

19- C.I.L.VIII, 14808.

20- C.I.L.VIII, 262.

21-ILAlg I, 1227.

22-A.E.1975, 846; P.Corbier, Hercule Africain…*Op.cit.*, p.95-101

23- LEGLAY (M.), Heraclès-Hercule *Op.cit.*, p.298.

وراء اسم هرقل الإغريقي الروماني ، فهو حامي التجار الفنيقيين باعتبارهم أول شعب أقام مراكز تجارية على طول الساحل المتوسطي مثل قادس وليكسوس .

فهل لهرقل نفس الحضور في المغرب القديم؟

يبدو أن فقر المغرب واضح فيما يخص النقائش المتعلقة بالعبادة الهرقلية فلم يعثر لحد الآن على أي إهداء لهذا الإله في حين يبدو أن له ارتباط وثيق بمثلوجيا المغرب القديم ، كما ارتبط اسمه بشكل كبير بالأعمدة، والتي تدل على جبلي أبيلا (جبل آشو) شمال المغرب و كالبي بإسبانيا، فحسب الأسطورة ان الجبلين كانا في الأصل جبلا واحدا ففرق هرقل بينهما ليصل البحر المتوسط بالأطلنتي و نفس الفكرة نجدها عند المؤرخ سينيك (Senéque) [24] و بومبونيوس ميلا[25] فهما يشيران الىأن هرقل فصل بين الجبلين و بزوال الحاجز فتح المجال أمام المحيط ليطلق عنانه[26] و قد ورد ذكر الأعمدة عند عدد من الكتاب القدماء ، فالمؤرخ هيرودوت يتحدث عن الأعمدة عند حديثه عن بلد يمتد بليبيا[27] في حين يشير إليها المؤرخ هيكاتي المليتي (Hecatée de Milet) عند توطينه لمدينة Trinké بالقرب منها . وفي النص الأصلي لرحلة حانون ورد اسم أعمدة هرقل باعتباره المكان الذي حددته قرطاج لانطلاق الرحلة صوب السواحل المغربية الموجودة مباشرة بعد اجتياز هذه الأعمدة وهذا يعني أن هذا الموقع كان معروفا من قبل الفنيقيين في السابق لأن أسطورة هرقل في أقصى الغرب ما هي في الواقع سوى تجسيد لمغامرات إله صور الذي يرمز إلى الأسفار الفينيقية البحرية نحو المحيط[28]

أما رحلة سيلاكس فتتحدث عن عمود أبيلا الذي يشكل العمود الليبي في حين أن سطرابون[29] يشير إلى العمودين معا و نفس الإشارة نجدها عند فيستوس أفينوس FestusAvienus خلال القرنIV-Vم أما في الكتاب السابع عشر فيتحدث سطرابون عن

---

[24]- Senéque, Hercule furieux, p.237-238.

[25]- Pomponius Mela, De chorographia, I,5.

[26]- PAULIAN (A.), Paysages océaniques dans la littérature latine, *Caesarodunum*, 13, 1978, p.27.

[27]- Herodote,IV,43;IV,199.

[28]- رضوان العزيفي، "الفنيقيون في الساحل الأطلنطي من خلال رحلة حانون"، **المصباحية**، العدد 4، 2000، ص.8.

[29]- STRABON, *Géographie* III, 170.

الأعمدة عند ذكره لمدينتي ليكسوس وقادس.

يبدو إذن أن الأعمدة شكلت نقطة استدلال بالنسبة للقسم الغربي من بلاد المغارب، فالمؤرخون القدماء كانوا يوطنون هذه المنطقة جغرافيا انطلاقا من الأعمدة.

أما علاقة هرقل بالأسطورة المغربية فتظهر من خلال إشارة بومبنيوس ميلا خلال القرن الأول الميلادي أثناء حديثه عن مغارة هرقل . يقول" عند رأس أمبولوسيا (رأس سبارطيل حاليا) توجد مغارة مكرسة لهرقل و ما وراء هذه المغارة، مدينة طنجة ، مدينة قديمة أسست حسب ما يقال من قبل أنطيوس[30](Antaeus) فهذه المغارة توجد عند قمة هذا الرأس أو على الساحل بين الرأس و طنجة و لا يمكن مطابقتها بمغارة هرقل التي توجد على الساحل الأطلنتي على بعد 54 كلم جنوب رأس سبارطيل و بالتالي يجب البحث عن هذه المغارة في اتجاه آخر.[31]

وكيفما كانت طبيعة هرقل في هذه المدينة وطبيعة العلاقة التي تربطه بهذه المغارة فليس هناك ما يمنع من إضفاء طابع القداسة عليها و التي تعود ربما لفترات سابقة لعبادة هرقل-ملقارت.[32]

ويشير المؤرخ بلوتارخوس في حديثه عن سيرة سرطوريوس[33] إلى أن" أنطيوس ابن بوصيدون و الأرض مات مخنوقا من قبل هرقل و بعد وفاته أنجبت زوجته Tinga من هذا الأخير ولدا سمي صوفاكس (Sophax) و هو الذي بنى مدينة طنجة و أعطاها اسم أمه".

ويزعم كل من يوبا الأول و الثاني أنهما ينحدران منه وقد عثر على عدد من النقود تحمل صورا لهذا الأخير، و في ظهرها مثلت بعض رموز الإله مثل الهراوة وسط تاج من الرند، ونفس الأمر ينطبق على نقود ابنه بطليموس. وتبقى مدينة ليكسوس من المدن التي احتفظت بالعديد من المشاهد الأسطورية و المخلفات الأثرية المرتبطة بالعبادة الهرقلية.

---

[30]- POMPONIUS MELA, De chorographia, I, 5.

[31]-REBUFFAT (R.), Bronzes antiques d'hercule à Tanger et à Arzila dans, *Ant.afr.*, 5, 1971, p.188.

[32]- DECRET (F.) - Fantar (M.H), *L'Afrique du nord dans l'Antiquité des origines au Vème siècle*, Payot, Paris, 1981, p.269.

[33]- PLUTARQUE, Sertorius, 9,4-5.

أشار بلينيوس الشيخ[34] خلال القرن الاول الميلادي إلى أن عبادة هرقل ملقارت تأسست في ليكسوس منذ القرن XII ق.م. يدل على ذلك وجود معبد بها (DelubrumHerculis). يقول" على ساحل المحيط يوجد معبد هرقل و هو أقدم من معبد نفس الإله الموجود في قادس" إذن فمنذ بدايتها وضعت المدينة تحت حماية إله الأسلاف ملقارت المطابق للإله هرقل[35].

إن هذه الإشارة جعلت من ليكسوس أقدم المستوطنات الفينيقية في الغرب المتوسطي ولم يتم الكشف بعد عن هذا المعبد مثله في ذلك مثل المباني الفينيقية في ليكسوس.

وانطلاقا من الإشارات الواردة في النصوص ينبغي البحث عنه خارج المجال الحضري كما هو الشأن بالنسبة لمعبد قادس.[36]

ويتحدث بلينيوس في الكتاب الخامس من التاريخ الطبيعي عن وجود مذبح للإله هرقل بهذه المدينة. يقول "تكتنف المصب جزيرة رغم عزلتها وانخفاضها بالنسبة للمناطق المجاورة لها، فإنها لا تغمرها المياه. وقد أقيم فوقها مذبح لهرقل، أما حدائق الهسبيريد الشهيرة، فلم يبق منها سوى بعض أشجار الزيتون البري"[37] وهذه الإشارة يؤكدها الجغرافي سترابون[38].

إن هذا المذبح هو ربما نفسه الذي مثل فوق إحدى الميداليات التي تعود للمدينة المستقلة، مما يدل على وجود عبادة " وطنية " كما أسلفنا الذكر.

خلال القرن الثاني الميلادي نجد إشارة عند الجغرافي بطليموس تتعلق برأس هرقلس (Cap Heraclès) والذي يوجد على خط طول 7°-30' وخط عرض 30' وهو بالتالي يوجد بين مصب نهر فتوت (Phtout تانسيفت) و تموسيكا (وكادور؟) و قد تمت مطابقة

---

[34]- PLINE, *H.N.*, XIX, 63.

[35]-JODIN (A), Volubilis Regia Iubae, contribution à l'étude des civilisations du Maroc antique pré-claudien, Paris, 1987, p.217.

[36]- HABIBI (M.), A propos du temple II et du temple de Melqart-Heraclès à Lixus, *AfricaRomana,Atti del X convegno di studio Oristano*, Dicembre1992, p.239.

[37]-PLINE, *H.N*.,V, 3.

[38]- STRABON, *Géographie, XVII, 3.3.*

رأس هرقل منذ فترة بعيدة برأس الحديد مباشرة شمال موكادور وهذه المطابقة أخذ بها كل من فيفيان دو سان مارتان و تبعه توفنو فيما بعد.

إن هذا الشناخ الذي تحدث عنه بطليموس يدفعنا للحديث عن شناخ آخر يوجد بالساحل الرملي لإفني، وهو رأس نون و الذي أشار إليه أحد التجار البرتغاليين خلال القرن السادس عشر وهو فلانتان فرنانديس (Valentin Fernandes).

يقول هذا الأخير" إن هرقل عند وصوله إلى رأس نون وجد تيارات قوية منعته من متابعة السير ثم أقام عمودا كتب عليه بالإغريقية ما يلي " كل من اجتاز هذا الشناخ قد يعود أو لا يعود و لهذا سمي هذا الرأس برأس نون"[39].

وإذا كانت النصوص تحمل إشارات حول هذه الأسطورة الهرقلية وحول أدوات العبادة فهل خلفت بصمات على المستوى الأثري؟

إن المخلفات الأثرية المتعلقة بعبادة هرقل في المغرب القديم قام بإحصائها روبيفا R.Rebuffat[40] وقدم نماذج منها وتتعلق أساسا بالتماثيل التي عثر عليها بعدة مواقع مثل طنجس وسبتة، وزيليل وليكسوس، وبناصا و تموسيدة و وليلي(انظر اللوحة) وسلا.

ويبقى المعبد و المذبح مجهولين لحد الآن و لم يتم الكشف عنهما و بالمقابل تبقى مدينتا ليكسوس وطنجة محط نزاع حول أحقية احتضان الصراع الذي دار بين البطلين هرقل وأنطيوس.

فحسب المؤرخ بلوتارخوس،ان مدينة طنجة هي التي احتضن ترابها الصراع بين هرقل و أنطيوس في حين يحدد سترابون[41] قبر العملاق أنطيوس في ليكسوس كما أن بلينيوس حدد مكان الصراع في هذه المدينة[42] و بها أيضا موقع حدائق الهسبيريد الغناء التي كانت مطمح هرقل إذ جاء إليها بحثا عن التفاحات الذهبية لكنه اصطدم بالعملاق أنطيوس.

---

[39]- REBUFFAT (R.), Bronzes antiques. *Op.cit.*, p.188.
[40]- *Ibid.*, p.179-191.
[41]- STRABON, *Géographie*, *XVII. 3,8.*
[42]- Pline, *H.N.*,V,3.

ومعلوم أن جذور هذه الخرافة نمت في البداية في قوريتة (ليبيا الحالية[43]) لتزدهر بعد ذلك في ليكسوس على شاطئ المحيط و إن كان البعض يحاول أن يوطن هذه الحدائق شمال أوروبا عوض الساحل الإفريقي.

وقد عثر على تمثالين من البرونز يصوران مشهد الصراع بين العملاقين في كل من بناصا وليكسوس (انظر اللوحة) و هناك أيضا بيضاويتان من فسيفساء أعمال هرقل بالمنزل المعروف تحت نفس الاسم بوليلي ، تبين إحداها صراع هرقل و أنطيوس و تشير الثانية وهي في حالة رديئة لذكرى حدائق الهسبيريدس.[44]

يبدو انطلاقا من الشواهد المكتوبة والمخلفات الأثرية أنه كان للبطل و الإله هرقل حضور في المغرب القديم وخاصة في مدن الساحل حيث يبدو التأثير الفينيقي حاضرا من خلال عبادة ملقارت الصوري و هناك استمرارية تداول بعض الأساطيرالمرتبطة به مثل أسطورة مغارة هرقل قرب طنجة، التي ظلت حاضرة في مخيلة الإنسان المغربي، كرمز للقوة الخارقة سواء القوة الجسدية أو المعنوية (الأخلاقية) و ذلك في خدمة الحق والقانون.

إذن هذه إحاطة بالأسطورة من خلال نموذج محدد هو نموذج البطل هرقل و يمكن تعميم هذه المنهجية على آلهة أخرى مثل الإله مركوريوس الذي يتردد اسمه على الأقل في مواقع مثل أدميركوري Ad. Mercuri[45] و أدميركوريوس Ad. Mercurius (خميس، جنوب سلا)[46] و رأس هرمس (رأس الأقواس) cap Hermès أو مثال الإله أبولون الذي ارتبط اسمه في جغرافية المغرب برأس فوبيوس (Phoebus) الوارد ذكره عند الجغرافي بطليموس كما يمكن تعميم هذا المنهج على مجال جغرافي واسع هو شمال إفريقيا.

عبد العزيز بل القايدة

كلية الآداب. القنيطرة

---

[43]- *Ibid.*, V.3, p.359-361.

[44]- بلقايدة عبد العزيز، بلكامل البيضاوية، "أنطيوس" معلمة المغرب، عدد3، ص.848.
THOUVENOT (R.), La maison aux travaux d'Hercule, *P.S.A.M.*, VII, 1948, p.69-108.

[45]- M.Lenoir,Ad.Mercuri templum,voies et occupation antique du nord du Maroc, M. D.A.I.R,100,1993,p.507-520.

[46] - A.Akerraz, Exploratio Ad. Mercurios, B.A.M. XIX, 2002, p.196.

بل الفايدة, عبد العزيز. 2006. أسطورة هرقل في المغرب القديم بين الخيال و الواقع. *البحث التاريخي*,مج. 2006, ع. 4, ص ص. 7-15.